أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التى تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التى أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هى : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هى عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعا من الناس ولا يبتلى بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا فى حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون فى عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هى أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب فى ذواتهم ، وفى مقومات حياتهم ، وفى معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما فى القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذى جاء فى سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ؛ لأن كل آية فى القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات ؛ لأن القصة تأتى بإجمال فى موضع وبإطناب فى موضع آخر ، وهنا يأتى موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر فى سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلا » أى لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذى أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهى عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إن معى ربى

سيهدين » بالحفظ والنصرة . . أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهى العصا نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصيبة قائلاً له :

﴿ اَضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذى يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أى سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ اَضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذى خلق هذه السنة الكونية هو الذى يستطيع أن يبطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى اترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليابس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجى ويهلك بالشىء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا فى قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ .

و « اليم » هو المكان الذى يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً فى قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا فى سورة الأعراف هو البحر . ويأتى سبب الإغراق فى قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشارق ومغارب » تقال بالنسبيات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس فى مكان فهى تشرق فى مكان آخر . وفى رمضان نجد الشمس تغرب فى القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله فى كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلى نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون فى اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلى صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله فى أن هناك عبادة فى كل وقت وفى كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادى لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » مناديًا لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف فى المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان فى كل مكان لتعلو « الله أكبر ، الله أكبر » فى كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و« كلمة » مؤنثة ، والكلمة هى قول الحق :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هى التى قالها ربنا وهى كلمة «الحسنى» لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهى نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذى نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

والتدمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًا فى الآثار التى تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء فى كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثرى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا ؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة فى وادى الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التى تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطى جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التى تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التى تثبت الأرض نجد طرقات القرية التى تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التى تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التى على قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذى هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « يعرشون » أى يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبة لتحمله وتحمل ثمرةً .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين فى نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعنى أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغرها بعض الشىء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعدلها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشىء ، وبين الجهل بالشىء ، فعدم العلم يعنى أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمى مثلاً الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمى حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

و « مُتبرٌ » أى هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التى تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا نستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يثبتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت ـ والعياذ بالله ـ وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التى كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : ياهبل ، يا لات ، يا عزّى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن الإله الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًّا غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبغيكم ﴾ أى أأطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و « إذ » يعنى اذكروا جيداً ولا يغب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ
فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ
هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثانى تفصيلى ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه فى سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا فى سورة الأعراف ألا يأتى بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل فى خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتى بخبر الستة الأيام وهى مجملة . لكنه شاء سبحانه فى موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها فى ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت) .

وهنا فى موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل فى ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هى ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه فى بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا فى الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه ـ سبحانه ـ سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، فى مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

وهنا يقول الحق فى سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفنى » أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلًّا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيًا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل علىّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و« لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و« لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلَّفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألَّا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بني إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ ﴾

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أي يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت ؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .